جاء في حوار بين نور وسعيد مهران في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ ما يلي :

« – أما أنت فلا قلب لك..

– حجزوه في السجن كما تقتضي التعليمات..

– أنت دخلت السجن بلا قلب..

– لم الإلحاح على حديث القلوب. إسألي الخائنة واسألي الكلاب، واسألي البنت التي أنكرتني».

• اللص والكلاب. مكتبة مصر – القاهرة. ص : 57 .

انطلق من هذا الحوار، واكتب موضوعا متكاملا، تنجز فيه ما يلي :

- إبراز تجليات موضوعتي الحب والكراهية في الرواية.
- تحديد نوعية العلاقة التي جمعت بين سعيد مهران والمرأة.

التحليل

يكشف لنا هذا المقطع الحواري عن امتلاء نفسية البطل (سعيد مهران) بالكراهية تجاه الآخرين، وذلك بفعل الظلم الذي تعرض له، وسنوات السجن التي قضاها بفعل خيانة مقربيه. وقد ورد هذا الحوار في الفصل السادس من الرواية، وتحديدا في تلك اللحظة التي التقى فيها نور، واحتالا على ابن صاحب مصنع الحلوى بسرقة نقوده وسيارته، قصد استعمال هذه الأخيرة في تنفيذ الجريمة التي كان سعيد مهران ينوي ارتكابها (الانتقام من عليش ونبوية). لكن هل يمكن القول من خلال الحوار السابق بأن الكراهية وحدها هي التي كانت تسيطر على نفسية سعيد مهران ؟ ألم يكن للحب مكان في قلبه؟ وإذا كان يكره زوجته السابقة نبوية لأنها خانته، فهل يكره أيضا ابنته سناء التي أنكرته كما جاء في الحوار، ونور المرأة التي ساعدته بعد خروجه من السجن ؟

لقد شكلت الكراهية تيمة أساسية في الرواية، وهي ناجمة عن الحقد الذي تولد في نفسية البطل بعد دخوله السجن بفعل تآمر كل من زوجته نبوية، وتابعه عليش، الذي وشى به عند البوليس. ومن هنا فهو يكره المرأة في شخص زوجته الخائنة، التي بات متشوقا للانتقام منها، يقول سعيد مهران في لحظة من لحظات غضبه : «لم تعد لي ثقة في جنسها كله...». كما أنه يكره عليش وعلوان، ويضع نصب عينيه لحظة الانتقام منهما، فعليش كان خادمه المطيع، يقتات من فتاته، أما رؤوف علوان فهو أستاذه الذي علمه القيم والمبادئ، وها هو الآن يغير جلده ويتحالف مع الأعداء ضده، ويتنكر لكل القيم التي علمها إياه، وها هو يكتب في الصحافة عن الموضة وعن أشياء تافهة، ولا يهتم بالمشاكل التي يتخبط فيها المجتمع. لقد أصبح كل هؤلاء الأعداء يرتدون زيا واحدا منسوجا بالغدر والخيانة والانتهازية : «سأجد نبوية في ثياب رؤوف، أو رؤوف في ثياب نبوية أو عليش سدرة مكانهما» (ص : 37). ومن هنا كان هم سعيد مهران هو الانتقام من هؤلاء الأعداء جميعا.

على أن هذه الكراهية يجب أن لا تحجب عنا الجانب المضيء في نفسية سعيد مهران، فهو ليس بلا قلب كما قالت نور، بل في قلبه متسع للحب، وقد كان قبل السجن والخيانة يحب هؤلاء الأعداء بدون حساب، وهو بعد خروجه من السجن ما زال يحب، فهو يحب الشيخ الجنيدي والمعلم طرزان اللذين سانداه بعد خروجه من السجن. كما أن علاقته بالمرأة لم تكن مبنية على الكراهية وحدها، فهو يعبر في غير ما مرة عن حبه لابنته سناء، الأمل الوحيد الذي يضيء ظلام حياته، على الرغم من إنكارها له كما جاء في الحوار. وهو يحب بعمق صديقته نور، بل إنه سيستحضرها في أحلك الفترات التي ستمر به، لحظة وشوك وقوعه في يد البوليس، بعد المطاردة، ولعل هذا المقطع من الرواية يغني عن كل تعليق :

« — نور أين أنت ؟

محال أن تكون بخير. هل قبض البوليس عليها؟...لن يرى نور مرة أخرى. وخنقه اليأس. ودهمه حزن شديد. لا لأنه سيفقد عما قريب مخبأه الآمن. ولكن لأنه فقد قلبا وعطفا وأنسا...ودلت حاله على أنها كانت أشد تغلغلا في نفسه مما تصور. وأنها كانت جزءا لا يصح أن يتجزأ من حياته الممزقة المترنحة فوق الهاوية. وأغمض عينيه في الظلام، واعترف اعترافا صامتا بأنه يحبها» (ص : 126).

وبهذا نكتشف أن علاقة سعيد مهران بالمرأة كانت متأرجحة بين الحب والكراهية، كراهية المرأة الخائنة، والرغبة في الانتقام منها، وحب المرأة الضعيفة المخلصة حبا متغلغلا في القلب، إلى درجة استحضار صورتها في أحلك اللحظات.

والخلاصة هي أن شخصية سعيد مهران لا تحمل في حقيقتها صفات سلبية، فعلى الرغم من ممارسته للصوصية، فإن هذه الممارسة كانت شريفة في عمقها ما دام الهدف منها هو تحقيق العدالة الاجتماعية (سرقة الاغنياء قصد إعانة الضعفاء)، وليست الكراهية إلا امتدادا لثورة سعيد مهران على الظلم والتسلط، أما الحب فهو جوهر نفسيته، وهو يكنه لكل هؤلاء الفقراء والمظلومين، ومنهم نور والجنيدي وطرزان.

ورد في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ أن البطل (سعيد مهران) بعد قتله (شعبان حسين) الساكن الجديد في بيت عليش سدرة :

«حلم بأنه يجلد في السجن رغم حسن سلوكه، وصرخ بلا كبرياء وبلا مقاومة في ذات الوقت. وحلم بأنه عقب الجلد مباشرة سقوه حليباً ورأى سناء الصغيرة تنهال بالسوط على رؤوف علوان في بئر السلم. وسمع قرآنا يتلى فأيقن أن شخصا قد مات. ورأى نفسه في سيارة مطاردة عاجزة عن الانطلاق السريع لخلل طارئ في محرّكها واضطر إلى إطلاق النار في الجهات الأربع (...) ثم اندس في حلقة الذكر التي يتوسطها الشيخ علي الجنيدي كي يغيب عن أعين مطارديه فأنكره الشيخ وسأله من أنت وكيف وجدت بيننا فأجابه بأنه سعيد مهران ابن عم مهران مريده القديم وذكره بالنخلة والدوم والأيام الجميلة الماضية».

• اللص والكلاب. مكتبة مصر – القاهرة. ص : 64 (بتصرف).

انطلق من هذه المقطـع، واستحضر ما درسته في الرواية من أحداث وشخصيات، ثم اكتب موضوعا متكاملا، تركز فيه على ما يلي :

- قضايا الحرية والعدالة والانتماء ...وأهميتها في توجيه سلوك البطل وعلاقاته.
- سردية الحلم وأهمية توظيفه في الرواية، وعلاقته بالواقع الذي يعيشه البطل.

التحليل

طرحت رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ مجموعة من القضايا المختلفة : السياسية، والاجتماعية، والفكرية، والأخلاقية ... في إطار ما يعرفه المجتمع المصري والعربي ككل من تناقضات وتحولات مفصلية كان لها بالغ الأثر في تحديد سلوك البطل (سعيد مهران) وتوجيه علاقاته ومواقفه، كما كان للحلم أهمية كبرى على المستوى الفني والسردي للرواية نفسها، فضلا عن ارتباطه الوثيق بواقع بطلها (سعيد مهران) وخصوصياته الذاتية.

– فما هي أبرز القضايا التي عُنيت الرواية بطرحها ؟ وما مدى تأثيرها في سلوك البطل ومواقفه ؟ وكيف يربط الحلم علاقته بالسرد الروائي وواقع البطل ؟

تنبثق القضايا الأساسية للرواية، بكل ما يميّزها من أبعاد فنية ورمزية، من الواقع الذي يعيش فيه البطل (سعيد مهران)، والعلاقات المختلفة التي تربطه بغيرها من الشخصيات الأخرى ...وتبقى قضية الحرية من أبرز هذه القضايا التي عنيت الرواية بطرحها على امتداد صفحاتها وتتابع أحداثها ووقائعها ؛ فالهاجس المؤرق للبطل الذي خرج لحينه من غياهب السجن بعد قضائه "غدراً" لعقوبة سجنية مدتها أربع سنوات، والمطارد بسبب رغبته الملحة في الانتقام من غرمائه هو الخوف من السقوط في قبضة الشرطة والمخبرين الذين يتعقّبون أثره ويطاردونه حيثما حل وارتحل، والرغبة في الإفلات من تربص غرمائه به (رؤوف علوان مثلا)، ومن ثمة تبقى حريته في كل

الأحوال حرية ناقصة أو مؤجلة ومشروطة تكبحها مجموعة من القوانين والضوابط والقيود. كما أن استشعار البطل للتفاوتات الاجتماعية الضاغطة، وافتقاد المجتمع لروح العدالة وضعفها بفعل استعباد الأغنياء ومن والاهم من زمرة الوصوليين والانتهازيين، لعموم المحرومين والمقهورين على مستويات عدة : سياسية، واقتصادية، واجتماعية... يؤكد أن مسألة الحرية تتجاوز ما هو فردي ومحدود إلى ما هو عام وجماعي، إذ لا تقف آثارها وامتداداتها عند حدود البطل (سعيد مهران) بقدرما تتعداه لتشمل المجتمع ككل، وتكشف عن مواطن عيوبه وتناقضاته.

وتحضر في الرواية، بالإضافة إلى قضيتي الحرية والعدالة سالفتي الذكر، قضية الانتماء والتنظيم على نحو مُلِحّ ؛ فحاجة البطل إليهما تظل قائمة على المستوى العاطفي والأسري (تعلّقه الشديد بابنته سناء، وحبّه الصريح والخفي لزوجته السابقة نبوية)، والمستوى الروحي والديني (علاقته بالشيخ علي الجنيدي وزيارته لزاويته)، وكذلك على المستوى الفكري والسياسي (صداقته السابقة للطالب رؤوف علوان والتزامه بتوجيهاته، ثم النقمة والتمرد عليه، والرغبة في تصفيته جسديا لمّا صار صحفياً انتهازياً قد تنكّر لمبادئه وحاد عن خطه الفكري السابق).

وإذا كان الوعي الذاتي والحلم الفردي لا يكفلان للبطل أن يحقق طموحاته في تغيير أحوال المجتمع، وإصلاح ما به من أعطاب ومفاسد ونواقص...فإنه يسمح له في الرواية – على الأقل – بالكشف عن تداعياته واستيهاماته الذاتية، وتدفّق ما يكبته في دخيلته من مشاعر وأحاسيس خاصة ؛ كالرغبة في استرجاع الماضي واستعادته دفء علاقاته الاجتماعية والإنسانية السابقة التي جمعته بغيره من الشخصيات الأخرى (نبوية، عليش سدرة، نور، رؤوف علوان، الشيخ علي الجنيدي...). والحلم – كما هو الحال في هذا النموذج (نص الانطلاق) – تمهيد للسرد الروائي مثلما هو أيضاً امتداد له حيث يتوقف بالقارئ، ضمن سياق الرواية، عند عنصر "المطاردة" وتخفّي البطل عن أنظار الشرطة والمخبرين حتى يتمكّن من الانتقام من غرمائه بعدما فشل في إحدى محاولاته لمّا قتل – على سبيل الخطأ – الساكن الجديد (شعبان حسين) في بيت عليش سدرة إثر رحيله عنه ؛ ومن ثمّة فالحلم استراحة وفسحة للسرد الروائي حيث يتسنى للرواية تحقيق بعض من حريتها والتخلص – ولو مؤقتاً – من قيودها وضوابطها الفنية والأدبية، كما يسمح الحلم أيضاً باستشراف النهاية المأساوية للبطل – ولو من قبيل التلميح والإيحاء – والكشف من ثمة عن معاناته وتمزّقه الذاتي عبر مستويات شتى : اجتماعية ونفسية وروحية. فالمستوى الاجتماعي يتجلى في ضياع البنت والزوجة والمال، والمستوى النفسي يتمثل في الفشل في الانتقام من الغرماء، والعجز عن الوصول إلىالطفلة (سناء) واسترجاعها، والمستوى الروحي يتمثل في الإحساس بالغربة والقلق والضياع في زاوية الشيخ علي الجنيدي...).

وخلاصة القول، إن لقضايا الحرية والعدالة والانتماء والتنظيم... بالغ الحضور والأهمية في توجيه سلوك البطل (سعيد مهران) وتحديد طبيعة العلاقات التي تربطه بغيره من الشخصيات في رواية "اللص والكلاب"، كما أن "الحلم" يسمح بالكشف في الرواية نفسها – على نحو فني ورمزي خاص – عن واقع هذا البطل والإعراب عن تداعياته واستيهاماته الخاصة، وتصوير إحباطاته ومعاناته الذاتية.

يلوذ البطل (سعيد مهران)، في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، بزاوية الشيخ علي الجنيدي شاكياً إليه خصومه وأعداءه :

«– هرب الأوغاد، كيف بعد ذلك أستقر ؟!

– كم عددهم ؟

– ثلاثة ..

– طوبى للدنيا إذا اقتصر أوغادها على ثلاثة.

– هم كثيرون، ولكن غرمائي منهم ثلاثة..».

• اللص والكلاب. مكتبة مصر – القاهرة. ص : 131 - 132.

انطلق من هذا المقطع الروائي، واكتب موضوعا متكاملا، تُضَمِّنُهُ ما يلي :

◎ ربط المقطع بأحداث الرواية ووقائعها.

◎ إبراز الخصائص الاجتماعية والنفسية للبطل وطبيعة العلاقة (أو العلاقات) التي تربطه بغيره من الشخصيات الأخرى، والغرماء الثلاثة منهم على وجه الخصوص.

التحليل

لمّا كانت علاقة البطل (سعيد مهران)، في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، بغيره من الشخصيات الأخرى، وتفاعله معها (بالسلب أو الإيجاب) خير محدِّد لطبيعة سلوكه الاجتماعي وخصائصه الذاتية النفسية والانفعالية ...فإن ذلك ما يعين المتلقي وييسّر له طريق قراءة الرواية وتعرّف أحداثها ووقائعها المختلفة.

– فما هي أبرز الخصائص الاجتماعية والنفسية للبطل (سعيد مهران) ؟ وبِمَ اتّسمت علاقته بباقي الشخصيات الروائية الأخرى عامة، والغرماء الثلاثة منهم بوجه خاص ؟

ينحدر (سعيد مهران) ابن العم مهران العجوز بواب عمارة الطلبة وحارسها من أصول اجتماعية متواضعة، عانى طيلة فترة طفولته من التهميش والفقر، كما شارك أباه خدمة الطلبة، ورافقه أيضاً إلى زاوية الشيخ علي الجنيدي... غير أن إعجابهُ بهَيْبة الشيخ ووقاره وطقوس مريديه الصوفية لم يَحُلْ دون جنوحه وتمرده، وتعاطيه للسرقة بتشجيع من صديقه وأستاذه الطالب السابق (رؤوف علوان) الذي اعتبر صدور ذلك الفعل الجرمي محاولة منه لإحقاق العدالة الاجتماعية الغائبة، وقصاصاً من جشع الأغنياء وتكالبهم على جمع الثروات بغير حق مشروع، قبل أن يتنكر لهذه المبادئ فيما بعد حينما صار صحفياً مرتزقاً يشارك هؤلاء الأثرياء بعض أسباب الثراء والنفوذ (الفيلا، المجلة...)، كما أن تواطؤ نبوية ؛ المرأة التي أحبّها البطل وتزوجها وأنجب منها ابنته (سناء)، مع عليش سدرة، مساعده وصبّيه السابق، وإقدامهما معاً على الوشاية به للشرطة لتزجّ به في السجن حتى يستوليا على ماله ويخلو لهما الجو للزاوج...قد زاد من حدة قلقه وتوتره، كما أن حرمانه من الوصول إلى ابنته، ومطاردة الشرطة

اللصيقة له وتضييقها الخناق على أنفاسه قد ضاعف من مستوى حقده على غرمائه ومن والاهم من قوات الشرطة والمخبرين، وأجّج في دخيلة نفسه الرغبة في الانتقام منهم. غير أن إخفاقه في ذلك وإنسداد الآفاق في وجهه، وهو المتطلع إلى البطولة والشهرة، ولّدَ لديه شعوراً حاداً ومريعاً بالإحباط والعبث، وافتقاد منطق الأشياء والوجود ككل مما عجّل بسقوطه واستسلامه.

وبالنظر إلى علاقات البطل (سعيد مهران) بغيره من شخصيات الرواية الأخرى، التي يمكن تصنيفها ضمن أربع فئات متمايزة، يمكن القول بأنه يطبعها بعض التفاوت والاختلاف من فئة لأخرى، كالآتي :

أ- الفئة الأولى : وتضم أفراد أسرته، وهم من يبادلهم الحب والمودة، ويتم استحضار ذكرياتهم عند استرجاع البطل لطفولته، أو لماضيه بوجه عام، ونذكر منهم : الأب، والأم، وابنته سناء.

ب- الفئة الثانية : وتتألف من الأصدقاء الذين ظلوا على وفائهم وتعاونهم مع البطل حتى بعد خروجه من السجن، وازدياد موقفه حَرجاً وخطورة، ومنهم : المومس نور، المعلم طرزان، الشيخ علي الجنيدي...

ج- الفئة الثالثة : وهي الفئة التي يكن البطل لأفرادها العداء الشديد، ويسعى إلى الانتقام منهم بتصفيتهم جسدياً ؛ وفي مقدمتهم غرماؤه الثلاثة : صديقه السابق رؤوف علوان، وزوجته السابقة نبوية، ومساعده عليش سدرة، ومن يقف في صفهم من أمثال : المعلم بياظة، والمخبر، والشرطة ...

د- الفئة الرابعة : وقد تواجد أصحابها في الزمان أو المكان الخطأ، فكانوا ضحايا لأحداث لا تعنيهم في شيء، مما ضاعف من حنق البطل، وإحساسه بالعبث والإحباط، ودفع به في النهاية إلى الإستسلام، ونقصد بذلك كلا من الموظف (شعبان حسين) الساكن الجديد في بيت نبوية وعليش سدرة الذي أرداه سعيد مهران قتيلا، وبواب فيلا رؤوف علوان الذي تلقى طلقات من رصاص مسدسه...

باختصار شديد، يمكن القول إن مجمل الخصائص الاجتماعية والنفسية المختلفة ؛ كالفقر والتهميش، والقلق والتوتر، والحقد، والرغبة في الانتقام، والإحساس بالفشل والإحباط، والشعور بالعبث ...كانت في مجموعها حافزاً للبطل (سعيد مهران) للجنوح إلى الجريمة، وما يتعلق بها من مخاطر وآفات مختلفة. يضاف إلى ذلك ظروفه وأوضاعه، وعلاقاته المتصالحة أو المتعارضة بغيره من الشخصيات الروائية، وفي مقدمتها غرماؤه الثلاثة : زوجته نبوية، ومساعده عليش سدرة، وأستاذه السابق رؤوف علوان.

يقول غالي شكري معلقا على رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ :

«...إن سعيد مهران الذي عرف الثقافة عن طريق رؤوف علوان، وعن طريق الثقافة والواقع عرف أن هناك فقراء وأغنياء، وأن العلاقة بين الطرفين هي علاقة استغلالية. سعيد مهران هذا لا يمكن أن نسلكه في عداد المجرمين لمجرّد أنه سرق أو قتل، فهو في سرقاته ورصاصاته إنما يصوغ لنا أزمة أكثر شمولا منه، تستمد قوتها من المناخ العام الذي عاش فيه ابتداء من رؤوف علوان، المثقف الذي علّمه مبادئ التمرد ثم خان هذه المبادئ، إلى نور المومس التي أحبّته فلم تخنه لحظة واحدة، بينما كانت هي الإنسان الوحيد من بين الملايين الذي يعرف مكانه دون أن يدري البوليس»

• المنتمي (دراسة في أدب نجيب محفوظ). دار المعارف/مكتبة الدراسات الأدبية – القاهرة. الطبعة : 1969/2. ص : 267.

انطلق من هذه القولة النقدية، واستحضر ما درسته حول رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، ثم اكتب موضوعا متكاملا، تركز فيه على ما يلي :

- الرؤيتين الفلسفية والفنية للرواية.
- صراع القيم وتبدل مواقف بعض الشخصيات الروائية.

التحليل

ظهرت رواية "اللص والكلاب" خلال ستينيات القرن الماضي (1961م تحديداً) بعد توقفٍ لصاحبها نجيب محفوظ عن الكتابة لمدة تقارب سبع سنوات خَبِر خلالها الكاتب عدداً من التناقضات والأعطاب المختلفة التي عرفها المجتمع المصري والعالم العربي ككل إثر مرور تسع سنوات على ثورة يوليوز (1952م). وقد اختطت رواية محفوظ هذه لنفسها مساراً مخالفاً لنهجه الفنّي السابق مستلهمة في ذلك عدداً من المتغيرات الطارئة ضمن هذا الواقع الجديد والمتحول.

– فما هي أبرز الخصائص العامة للرؤيتين الفلسفية والفنية اللتين تؤطران الرواية ؟ وكيف استطاعت أحداثها وشخصياتها المختلفة تصوير مجموعة من القيم المتصارعة والمواقف المتبدّلة في واقع جديد ؟

تكشف الرواية، عبر امتداد صفحاتها وتلاحق وقائعها وأحداثها التي اتخذت قالب الرواية البوليسية، عن رؤية مأساوية لبطل مأزوم هو سعيد مهران الذي خرج لتوّه من السجن بعد قضائه لعقوبة حبسية مدتها أربع سَنوات بتهمة السرقة التي لا يعتبرها البطل، بإيعاز من أستاذه السابق الصحفي رؤوف علوان وتوجيهه له، مجرد فعل سلبي محدود يهدّد سلامة وطمأنينة المجتمع، بل هي في تصوره أكبر من ذلك بكثير قضية إشكالية كبرى ذات أبعاد وامتدادات رمزية مختلفة ؛ اقتصادية، وسياسية، واجتماعية...ذلك أن الفكرة المحددة للرؤيتين الفلسفية والفنية للرواية ككل تعود بخلفيتها المرجعية والمعرفية إلى قضية شغلت الرأي العام المصري خلال هذه الفترة التاريخية؛

وهي قضية المدعو محمود أمين سليمان التي عمد نجيب محفوظ إلى تحويلها من واقعة فردية معزولة ومحدودة تقتصر على جرم السرقة والرغبة في الانتقام الشخصي إلى قضية عامة تحرض، انطلاقا من شمولية طرحها في الرواية، ومن خلال شخصية سعيد مهران وعلاقته بغيره من الشخصيات الروائية الأخرى، على إثارة ما يتردّى فيه المجتمع من تناقضات ومفارقات سلبية (تفشي القمع ومصادرة الحريات، وتفاقم شرور البيروقراطية، وتزايد أعداد الانتهازيين والمنتفعين من الأوضاع القائمة، وفشل مشاريع الإصلاح المختلفة التي دعت إليها ثورة يوليوز...إلخ). وبذلك استطاع نجيب محفوظ، من حيث اعتماده الرواية الرمزية ذات البناء أو القالب الفني للرواية البوليسية، رصد مجموعة من القيم المتصارعة ؛ كقضايا الحرية، والعدالة، والوفاء والحب...إلخ، فضلا عن قضية التنظيم والانتماء...إذ تصبح الشخصيات الروائية – بكل وضعياتها المتناقضة ومواقفها المتصارعة والمتبدلة – شواهد ورموزاً لمجموعة من التحولات التي عرفها المجتمع خلال هذه الفترة التاريخية، والتي شملت مستويات شتى: سياسية، واقتصادية، واجتماعية...إلخ. ومن ثمة يمكن التمييز في هذا الإطار بين تصوات ومواقف روحية ودينية (الشيخ علي الجنيدي، العم مهران، المريدون...)، وأخرى نفعية مادية أو انتهازية (رؤوف علوان، عليش سدرة، نبوية...)، وثالثة فكرية عبثية يتخبط أصحابها بين الشك والرفض والقلق (سعيد مهران)... مما يترتب على ذلك كله عدد من الاصطدامات والتعارضات الحادة ؛ فالقيم السلبية سريعة التقلب والتحول، ووضعيات أصحابها من الشخصيات الروائية يغلب على نفوسهم وطباعهم الزيف والانتهازية والخيانة بحيث يتحول الطالب الفقير المتمرد (رؤوف علوان مثلا) إلى صحفي مرتزق يملك فيلا ومجلة تافهة تتابع أخبار النجوم والموضة، ونبوية (الزوجة والأم) لا تجد في أعماق نفسها وازعاً من ضمير يمنعها من الزجّ بزوجها (سعيد مهران) في غياهب السجن والوشاية به للشرطة والمخبرين ليخلو لها الجو كي تسطو على ماله ويتسنّى لها الزواج بالتواطؤ مع مساعد زوجها السابق (عليش سدرة)...إلخ. أما القيم المخالفة للتي سبق ذكرها فتطبعها الإيجابية ويَسِمُهَا الثبات ؛ إذ يحرص أصحابها على حب الغير والوفاء له والمبادرة إلى مدّ يد المساعدة له لإقالته من عثراته حتى وإن كانت ظروفهم وأوضاعهم الصعبة لا تسمح لهم بذلك ؛ فالمعلم طرزان يتدبّر للبطل طلباته رغم خوفه من الوقوع في قبضة الشرطة ومراقبة المخبرين اللصيقة لقهوته وأنشطته، أما المومس (نور) فَتُشرع أبواب بيتها له مُرحّبة بزيارته لها رغم معرفتها برغبته في الانتقام من غرمائه ومطاردة الشرطة والمخبرين له، وبريق إغراء المكافأة التي رصدتها الشرطة لمن يدلّها على أثره ومكان وجوده، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة للشيخ علي الجنيدي الذي يحرص على إيوائه في زاويته وتوفير الطعام له، ولا يبخل عليه بحسن المشورة وإسداء النصيحة له رغم أنه لا يجد من مخاطبه (سعيد مهران) أذُناً صاغية.

هكذا، استطاعت رواية "اللص والكلاب" أن تقدّم رؤية فلسفية وفنية متكاملة لأزمة المجتمع الشاملة، وأن ترمز من خلال أحداثها وشخصياتها المتفاعلة إلى مجموعة من القيم المتصارعة والمواقف المتبدلة انطلاقاً من البناء أو القالب الفني الذي اعتمدته، والذي هو بالطبع قالب الرواية البوليسية.

في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ يزور البطل (سعيد مهران)، إثر خروجه من السجن، الشيخ علي الجنيدي ليزفّ إليه الخبر:

« -...لا أحبُّ أن ألقاك متنكراً، لذلك أقول لك إنني خرجت اليوم فقط من السجن..

فهزّ رأسه في بطء وهو يفتح عينيه قائلا فيما يشبه الأسى:

- أنت لم تخرج من السجن..

فابتسم سعيد. كلمات العهد القديم تتردّد من جديد حيث لكل لفظ معنى غير معناه وقال:

- يا مولاي كل سجن يهون إلا سجن الحكومة ....».

• اللص والكلاب. مكتبة مصر - القاهرة. ص: 20.

انطلق من هذه المقطـــع، واكتب موضوعا متكاملا، تُضَمِّنُهُ ما يلي:

- صور "السجن" وأشكال حضوره المختلفة في الرواية.
- دلالاته وأبعاده الرمزية والتعبيرية المتعدّدة، وعلاقاتها بالأحداث والشخصيات والبناء الفني للرواية.

التحليل

يتجاوز مفهوم "السجن" مؤسسة السلطة وعنفها القمعي الرادع أو دورها الإصلاحي والتربوي، في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، إلى دلالات وأبعاد أخرى رمزية وتعبيرية مختلفة لا تخص الجوانب الانفعالية والنفسية للبطل فقط، وإنما تمتد إلى غيره من الشخصيات وإلى البناء الفني للرواية ككل.

- فما هي أشكال حضور مفهوم "السجن" في الرواية ؟ وما هي أبرز أبعاده ودلالاته الفنية والتعبيرية ؟

تنطلق أحداث الرواية من الإفراج عن البطل (سعيد مهران) بعد قضائه لعقوبة سجنية مدتها أربع سنوات مصمماً على الانتقام ممّن سماهم "الخونة" الذين غدروا به وألقوا به في غياهب السجن (زوجته نبوية، ومساعده عليش سدره)، حيث يقول السارد: «...لم يجد في انتظاره أحدا. ها هي الدنيا تعود، وها هو باب السجن الأصم يبتعد منطويا على الأسرار اليائسة (...) نبوية عليش، كيف انقلب الإسمان إسما واحدا ؟ أنتما تعملان لهذا اليوم ألف حساب، وقديماً ظننتما أن باب السجن لن ينفتح، ولعلكما تترقبان في حذر، ولن أقع في الفخ، ولكني سأنقض في الوقت المناسب كالقدر» (الرواية - ص: 7 - 8)، لكن نهاية الرواية، وإن كانت لا تعلن عن ذلك على نحو صريح ومباشر، تستشرف "السجن" الذي هو مصير السعي الخائب للبطل لمّا يفشل في الانتقام من خصومه، ولا يحصد رصاصه الطائش غير أرواح الأبرياء الضعفاء (شعبان حسين الساكن الجديد في بيت عليش سدره، بواب رؤوف علوان)، فيكون مضطرا إلى الاستسلام بفعل حصار الشرطة الخانق ورصاصها المتطاير من حوله. ومن ثمة تغدو "عقلية السجين" المتجلية في تخبّط سلوك البطل (سعيد مهران) وعجزه عن التكيف والاندماج مع معطيات

الواقع الجديد بعد الإفراج عنه، مدعاة للتبرير في كثير من الحالات والمواقف، كما هو الحال عند مقابلته رؤوف علوان لما أبدى أسفه على نزقه وتسرّعه في إبداء ملاحظات شخصية أثارت حفيظه مضيفه ...يقول السارد : «...وأسف على إفلات هذه الملاحظة. ولمح في عيني صاحبه نظرة باردة. ألا يعرف لسانك ما الأدب ؟ (...).

فراح يدخن السيجارة بسرعة عصبية دون أن ينطق حتى اضطر سعيد إلى التوقف عن الأكل. وقال بلهجة المعتذر :

– لم أتخلص بعد من جو السجن فيلزمني وقت طويل حتى أسترجع آداب الحديث والسلوك ...» (الرواية – ص: 33 - 34)، وتغدو هذه "العقلية" ستاراً لما يضمره في نفسه من حسد أو حقد دفين، ورغبة ملحة في الانتقام كما يتبيّن ذلك من خلال توسلّه إلى أستاذه وصديقه القديم (رؤوف علوان) كي يعفو عنه ويخلي سبيله لمّا ضبطه الخدم في بيته (فيلاه) متلبساً بجرم السرقة، وهدّده بتسليمه للشرطة...يقول السارد على لسان البطل (سعيد مهران) : «...والصمت القاتل أثقل من سور السجن، والسجّان عبد ربه سيقول هازئاً ما أسرع أن رجعت. وانطلق صوت نحاسي من وراء ظهره يتساءل :

– نادي البوليس ؟

(...) وبصوت خافت وبعينين تختفيان في الأرض قال :

– رأسي دائر، مازال دائرا منذ خرجت من السجن...

– اعذرني، مازلت أعيش بعقلية السجن وما قبله.» (الرواية – ص : 40 - 43 بتصرف).

وهو الموقف ذاته، الذي انتهى إليه سعيد مهران، عند زيارته للشيخ علي الجنيدي الذي أدرك بفراسة الزاهد المتصوف، وحدسه الشفيف العميق لبواطن الأمور وخفاياها، انغلاق بصيرته وابتعاده عن جادة الحق وطريق الصواب...إذ "السجن" في التصور العرفاني للشيخ المذكور لن يكون إلا سجن أو حجاب الجسد، أو الدنيا، أو العقل...أو ما شابه ذلك... كما يتبين من خلال المقطع الحواري الذي نحن بصدد تحليله.

ومن ثمة يغدو "السجن" بكل ما توحي به الكلمات من دلالات القسوة والعنف والمعاناة مقياسا لما يجده البطل من خيبات ذاتية وانكسارات مريرة في واقعه الجديد ؛ كما هو الحال في جفول ابنته الصغيرة (سناء) وإعراضها عنه لما دعاها إلى حضنه في بيته السابق الذي آل أمره إلى مساعده (عليش سدرة) الذي تزوج من زوجته السابقة (نبوية) بعد دخوله إلى السجن، وتمكّنهما معا خلال هذه الفترة من الاستيلاء على ماله وكتبه... يقول السارد: «...وتجلت في الأعين نظرات اهتمام، وشماتة وآمن سعيد بأن جلد السجن ليس بالقسوة التي كان يظنها. وقال متوسلا : تعالي يا سناء ...» (الرواية – ص : 15). وفي مقارنة أخرى أشد سخرية بين "التنبل" و" الخائن" يرد البطل (سعيد مهران) على محاوره وصديقه القديم (المعلم طرزان) الذي يشكوه ندرة من يعتمد عليهم من الرجال لما زاره في قهوته :

« – تنابلة كأنهم موظفو الحكومة !

فندت عنه نفحة ساخرة :

– التنبل على أي حال خير من الخائن، بسبب خائن دخلت السجن يا معلم طرزان.» (الرواية – ص : 46).

وفي القهوة ذاتها يلتقي صدفة من كانت تحبه بصدق وإخلاص؛ أي المومس (نور) التي تكشف له بالمناسبة عن شعورها وتعاطفها معاتبة إياه...

« – أتدري كم حزنت عند ما علمت بسجنك ؟...

– حجزوه في السجن كما تقضي التعليمات....

– أنت دخلت السجن بلا قلب...» (الرواية – ص : 57 بتصرف).

ولما تفتح له نور بعد هذه المقابلة أبواب بيتها للتواري خلف جدرانه عن أنظار مطارديه من الشرطة والمخبرين والكلاب وفضول الصحفيين يتحول هذا البيت الذي يجاور المقبرة (القرافة) إلى سجن جديد تحت وطأة عوامل الضغط والقلق والتوتر التي تنتابه ...يقول : «...وشخير نور يبدو أنه لن ينقطع إلا حين تستيقظ عند الأصيل. وستبقى أنت في هذا السجن حتى ينساك البوليس، ولكن هل ينساك البوليس حقا ؟» (الرواية – ص : 77). ويزداد الأمر سوءا عند تفاقم شعوره بالوحدة لما تضطر ظروف الشغل صاحبة البيت إلى الغياب طويلا، وإحساسه الحاد بالقيود التي تعوق حركته وتمنعه من تحقيق ما تهفو إليه نفسه من رغبات، بحيث لا يبقى في وسعه غير الإنصات في عجز بالغ إلى صمت القبور... يقول : «...وانتشر الظلام، نعم انتشر الظلام في الحجرة وخارج النافذة وزاد صمت القبور صمتا ولا يمكن أن تضيء المصباح كي تبقى الشقة كما تبقى عادة في أثناء غياب نور، وستألف عيناك الظلام كما ألفت السجن وكما ألفت الوجوه الكريهة. ولن تجد فرصة للسكر خشية أن تحدث حركة عنيفة أوترفع صوتا منكرا إذ يجب أن تبقى الشقة صامتة كالقبر، وحتى الأموات أنفسهم لن يفطنوا لوجودك هنا والله وحده يعلم كيف تصبر على هذا السجن وإلى متى ..» (الرواية – ص : 83).

وهكذا، تعتبر مؤسسة "السجن"، انطلاقا من كونها فضاء روائيا له أبعاده ودلالاته الفنية والرمزية الخاصة، محركا فاعلا وأساسيا في رسم وتوجيه كثير من وقائع وأحداث رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ (الخيانة والانتقام، المطاردة والاختفاء، الحصار والاستسلام...)، وما تولد عن ذلك كله من هواجس ومضاعفات قوية وضاغطة على التوازن النفسي للبطل (سعيد مهران) مما كان له بالغ الأهمية ليس في توجيه سلوكاته وتحديد اختياراته وقراراته الشخصية فقط، بل أيضا في البناء الفني للرواية ككل من خلال الحركة الذاتية للبطل ودورانها العبثي العنيف ضمن حلقة وعيه الداخلي ومجرى شعوره الباطن.

يطل سعيد مهران، في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، من نافذة بيت (نور) إلى المقبرة التي تجاوره، فيقول :

«يا للعدد العديد من المقابر، الأرض تمتد بها حتى الأفق رافعة أيديها في تسليم وإن يكن شيء لا يمكن أن يهددها. مدينة الصمت والحقيقة. ملتقى النجاح والفشل والقاتل والقتيل. مجمع اللصوص والشرطة حيث يرقدون جنبا إلى جنب في سلام لأول وآخر مرة...وبقدر ما يخون الموت الأحياء فستذكر بالقبور الخيانة ثم تذكر الخيانة نبوية وعليش ورؤوف. وأنت نفسك ميّت منذ انطلقت الرصاصة العمياء، ولكن عليك أن تطلق مزيدا من الرصاص».

• اللص والكلاب. مكتبة مصر – القاهرة. ص : 77.

اقرأ هذا المقطـــع الروائي، ثم اكتب موضوعا متكاملا، تراعي فيه ما يلي :

⊙ حضور "الموت" على امتداد أحداث الرواية ووقائعها، ومدى تحديده لسلوك البطل (سعيد مهران) وتوجيه علاقاته وصلاته بالشخصيات الأخرى.

⊙ استخلاص أبرز دلالات الموت وإيحاءاته الرمزية، وتفاعلها مع مختلف القيم والأحاسيس في الرواية بالسلب أو الإيجاب.

التحليل

يحظى "الموت" – هذه الظاهرة الطبيعية المدمرة والحقيقة الوجودية الملغزة في حياة الكائن الإنساني – بحضور قوي ولافت للنظر على امتداد صفحات رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، وذلك خضوعا لما يعتمل في الرواية من أحداث متشابكة، وشخصيات متصارعة...وما يتولد عن ذلك كله من قيم وأحاسيس مختلفة.

– فما هي، إذن، تجليات "الموت" وصور حضوره على مستوى أحداث الرواية ؟ وكيف تتحدد أهميته في توجيه سلوك الشخصيات عامة، والبطل منها على وجه الخصوص ؟ وما طبيعة صلاته وعلاقاته بمختلف القيم والأحاسيس ؟

إذا كانت لحظة الإفراج عن البطل (سعيد مهران) من السجن، الذي قضى من وراء قضبانه أربع سنوات من زهرة شبابه نتيجة الغدر والخيانة، هي بداية الرواية ...فإن إقراره العزم على الانتقام من الخونة الذين كادوا له وأوقعوا به في قبضة البوليس هي المحرك الفعلي لما توالى، فيما بعد، من وقائع وأحداث متشابكة ومختلفة...ولن يكون انتقامه، في ضوء هذه الأحوال والتداعيات، من هؤلاء الخصوم والأعداء بالطبع إلا بإعمال القتل ونشر الموت في صفوفهم، فقد «آن للغضب أن ينفجر وأن يحرق، وللخونة أن ييأسوا حتى الموت» (الرواية – ص :7)...لذا يقول مهددا : « بهذا المسدس أستطيع أن أصنع أشياء جميلة على شرط ألا يعاكسني القدر وبه أيضا أستطيع أن أوقظ النيام فهم أصل البلايا، هم خلقوا نبوية وعليش ورؤوف علوان.» (الرواية – ص : 72). وحتى يتأهب لخوض هذه المغامرة بكامل عدتها (المال، السلاح، عناوين الضحايا...إلخ) يبادر إلى التربص بابن صاحب مصنع الحلوى ؛ رفيق صديقته المومس (نور)،

في خلوتهما غير البريئة عند مدفن الشهيد في المقبرة بصحراء العباسية ليسطو على ماله وسيارته ...مهدّداً إياهما بالقتل. كما يتربص لاحقا بالمعلم بياظة لينتزع منه عنوان غريمه (عليش سدره) الذي هو شريك لهذا "المعلم" ومعاون له، كما يسلبه بعض ماله أيضا. غير أن الأمور تجري في الرواية بغير ما يتوقعه البطل (سعيد مهران)، حيث يتورط في جريمة قتل شعبان حسين الساكن الجديد في بيت عليش سدره، على سبيل الخطإ، ظنا منه أنه خصمه المطلوب الذي يود تصفيته، لذلك يؤرق مضجعه الشعور بالذنب، وتلاحقه ذكراه الملحّة الضاغطة. ويسوء الأمر أكثر لما يقتل البواب، من قبيل الخطإ أيضا، عوض غريمه الصحفي (رؤوف علوان)، فيتضاعف شعوره بالذنب حيال رصاصه الطائش الذي لا يحصد غير الضعفاء الأبرياء من دون موجب حقيقي أو منطقي ...لذلك يقول «...أنا لم أقتل خادم رؤوف علوان، كيف أقتل رجلا لا أعرفه ولا يعرفني ؟ إن خادم رؤوف علوان قتل لأنه بكل بساطة خادم رؤوف علوان، وأمس زارتني روحه فتواريت خجلا ولكنه قال لي ملايين هم الذين يقتلون خطأ وبلا سبب» (الرواية – ص : 120).

وفي خضم هذه الأحداث العنيفة والمتلاحقة، واشتداد طوق الحصار من حول البطل لا يجد هذا الأخير، لطول ملازمته بيت نور، وسيلة لتسلية النفس وتزجية للوقت غير النظر مليا إلى المقبرة وتأمل شؤونها وأحوالها...، كما تتداعى ذكريات موت الأب (عم مهران) الكهل الطيب إلى خاطر البطل (سعيد مهران)، حيث يقول : «...لا يمر يوم دون أن تستقبل القرافة ضيوفا جددا ...الموت في نشاطه الدائب. والمشيعون أحق بالرثاء. يذهبون في جموع باكية، ثم يعودون وهم يجففون الدموع ويتحادثون. وقوة أقوى من الموت نفسه هي التي تقنعهم بالبقاء. هكذا دفن الذاهبون من أهلك. عم مهران الكهل الطيب بواب عمارة الطلبة...» (الرواية – ص : 88). ومن ثمة لن تخلف هذه الذكرى الأليمة في نفس الطفل الصغير غير الإحساس العميق بالتعاسة والبؤس اللذين يلفهما لغز الموت بغموضه وهيبته، فيستشعر العجز الفادح أمام قوته وخطره الداهم الذي لا يجد منه مهربا ؛ وخصوصا لما سارعت الأم إلى اللحاق بزوجها الراحل حسرة وكمدا، وفي هذا يقول السارد : «...وتتابعت أيام كالأحلام ثم اختفى عم مهران الطيب. اختفى الرجل على نحو لم يفهمه الغلام، وبدا الشيخ علي الجنيدي نفسه عاجزا أمام اللغز . "يا بؤسك...يا بؤسنا ...مات أبوك" هكذا صاحت أمك وهي تصوت...وبكيت فزعا لأنه لم يكن في وسعك أن تفعل شيئا...ثم اختفت أمك وكدت تهلك بسبب مرضها...» (الرواية – ص : 89). وإذا كان مرض الأم حافزا للبطل على الجنوح إلى الجريمة وباعثا له على ارتكاب أولى سرقاته ...فإن موتها قد فجر ما كان بداخله من تمرد وعنف شديدين ... يقول السارد : «...ودلوه على الطبيب الشهير وهو خارج من غرفة فجرى إليه بجلبابه وصندله صائحا "أمي...الدم" (...) ورطنت الممرضة بلغة لم يفهمها ولكنه شعر بأنها تشاركه بعض مأساته. وغضب غضبة رجل رغم حداثة سنه. صاح محتجا لاعنا. ورمى بمقعد إلى الأرض فأحدث دويا وتطايرت قشرة مسنده (...) وعقب شهر من هذا الحادث ماتت الأم في قصر العيني وطيلة احتضارها ظلت قابضة على يدك وتأبى أن تحول عنك عينيها. غير أنك في غضون شهر المرض سرقت، لأول مرة، سرقت طالبا ريفيا من نزلاء عمارة الطلبة. واتهمك الطالب دون تحقيق وانهال عليك ضربا» (الرواية – ص : 90). أما ابنته

(سناء) فذكراها الحزينة التي تقض مضجعه تقترن بدورها بالموت على غرار غيرها من الذكريات الأليمة، حيث يقول : «...وجفولك يا سناء مؤلم حقا كمنظر القبر. ولا أدري إن كنا سنلتقي مرة أخرى، أين ومتى. ولن يخفق قلبك بحبي في هذه الحياة المليئة بالرصاصات الطائشة. وكالرصاص تطيش رغائب كثيرة في الدنيا مخلفة وراءها سلسلة من الحلقات المحزنة» (الرواية – ص :78). كما تحضر هذه الذكرى مجددا لما يستشعر نهايته الوشيكة على نحو فاجع...إذ يقول : «لن يكونِ الحكم أقسى من جفول سناء. قتلتك قبل المشنقة وعطف الملايين عليك عطف صامت عاجز كأماني الموتى» (الرواية – ص : 120).

عموما، يحضر "الموت"، في الرواية، سواء أكان طبيعيا (موت الأب والأم)، أو في صورة الجريمة والقتل المتحققين (شعبان حسين، بواب رؤوف علوان)، أو التهديد بالشروع في تنفيذه (ابن صاحب مصنع الحلوى، المعلم بياضة)، أو التوق إليه أو التطلع إلى تحقيقه (عليش سدره، نبوية، رؤوف علوان)، أو غير ذلك من الصور الأخرى التي تكتنفها مجموعة من القيم والأحاسيس المختلفة ؛ كالغضب، والقلق، والعنف، والرهبة، والخوف، والصمت، والحقيقة، والغدر، والخيانة، والانتقام، والبؤس، والتعاسة، والجنون، والعبث...إلخ. ومن هناكان البطل (سعيد مهران) محقا وهو يصف سوء حاله، إذ يقول : «...قضي عليه بلا جدوى، مطارد وسيظل مطاردا إلى آخر لحظة من حياته، وحيد عليه أن يحذر حتى صورته في المرآة، حي بلا حياة كجثة محنطة » (الرواية – ص : 70).

جاء في رواية :"اللص والكلاب" لنجيب محفوظ، ما يلي :

«جاءكم من يغوص في الماء كالسمكة، ويطير في الهواء كالصقر، ويتسلق الجدران كالفأر..أنسيت يا عليش كيف كنت تتمسح في ساقي كالكلب...الويل للخونة، في هذه العطفة ذاتها زحف الحصار كالثعبان ليطوق الغافل...».

• اللص والكلاب. مكتبة مصر – القاهرة. ص : 8 (بتصرف).

انطلق من هذه القولة، واكتب موضوعا متكاملا، تنجز فيه ما يلي :

- إبراز مدى توظيف نجيب محفوظ لرمزية الحيوان في الرواية، ودلالات هذا التوظيف.
- تحديد طبيعة العلاقة التي ربطت بين سعيد مهران وباقي الشخصيات في الرواية.

التحليل

يبدو من خلال عنوان رواية "اللص والكلاب" أنها تجمع بين عالمين متعارضين : عالم الإنسان (اللص)، وعالم الحيوان (الكلاب). وتتأكد دلالة هذا الجمع من خلال ما تزخر به الرواية من توظيف لرمزية الحيوان، حيث نجد نجيب محفوظ يستحضر أسماء حيوانات كثيرة ليرمز بها إلى معاني متعددة، ويجعل منها وسيلة لانتقاد الواقع وقيمه. إن توظيف نجيب محفوظ لرمزية الحيوان، يؤكد ما ذهب إليه النقاد من أن رواية "اللص والكلاب" شكلت منعطفا هاما في مسيرته الإبداعية، حين تحول من كتابة الرواية الكلاسيكية، إلى تجريب ما يعرف بالرواية الرمزية.

– فما هي دلالات رمزية الحيوان في الرواية ؟ وما وظيفتها داخل المتن الحكائي ؟ وإلى أي حد استطاعت أن تصور لنا طبيعة الصراع بين شخصيات الرواية ؟

برجوعنا إلى المقطع الروائي أعلاه نجد البطل "سعيد مهران"، استعمل أسماء الحيوانات في سياق تشبيهات، للدلالة على معاني متعددة، يمكن أن نحددها، من خلال إضافة أسماء حيوانات أخرى بالإضافة إلى تلك المذكورة في المقطع، من خلال مايلي :

ـ الرمز إلى القوة : وذلك من خلال استحضار حيوانات من قبيل : الصقر، والثعبان، والنمر، والفيل....ومن خلال المقطع أعلاه، نكتشف أن سعيد مهران شبه نفسه بالسمكة، والصقر...ليصور لنا قوته على مواجهة أعدائه.

ـ الرمز إلى معاني الدناءة والحقارة : وقد وظف نجيب محفوظ للدلالة على هذه المعاني حيوانا أساسيا هو "الكلب"، الذي تردد مرات كثيرة تارة بصيغة المفرد، وتارة بصيغة الجمع، فسعيد مهران البطل، يستعمل لفظ "كلب" أو "كلاب" ليعبر عن دناءة وخسة أعدائه من قبيل : رؤوف علوان وعليش...يقول مثلا عن عليش : «كان

يقف بين يدي كالكلب» (ص : 25)، ويقول متحدثا عن أعدائه : :«ولأول مرة سيطارد اللص الكلاب» (ص : 138). كما تحضر للتعبير عن نفس الدلالات حيوانات أخرى كالأفعى والعقرب، والثعلب.

- **الرمز إلى معاني الضعف والوداعة** : وهنا تحضر حيوانات من قبيل : الفراشة، والفأرة التي جاءت في الرواية في سياق الحديث عن نور : «كانت ثمة فراشة تعانق المصباح» (ص : 87)، وجاء في سياق الحديث عن سناء : «كالفأرة ! مم تخاف ؟» (ص : 14).

إن كل هذه المعاني تتضافر لتصور لنا الواقع الذي واجهه سعيد مهران، بعد خروجه من السجن، حيث سيجد عالما من الكلاب الأعداء، الذين تخلوا عن كل القيم الإنسانية، وتشبعوا بمختلف الصفات السلبية للحيوان من قبيل : الخداع، والتملق، والوشاية، والعبودية....وقد كانت صفة الكلب / الكلاب معبرة عن كل هذه المعاني التي اجتمعت في أعدائه الذين تنكروا له بعد خروجه من السجن : نبوية، وعليش، ورؤوف علوان...وفي المقابل اكتست الشخصيات المتعاطفة مع سعيد صفات الضعف والوداعة وذلك مثل نور التي شبهت بالفراشة، ومثل هذا التوظيف يصور لنا وجود عالم قوي، في مواجهة عالم ضعيف، وقد حاول سعيد مهران لوحده أن يواجه قوى الشر (الكلاب)، لكنه فشل لأن الكلاب قد اكتسبت من مساندة المجتمع مالم تكتسبه الشخصيات الضعيفة التي ساندت سعيد في محنته من قبيل : نور، والجنيدي، وطرزان.

لقد شكلت رمزية الحيوان قيمة مهيمنة في رواية "اللص والكلاب"، واستطاعت أن تصور لنا الصراع بين القيم الحقيرة التي اكتسبها أعداء سعيد مهران، والقيم النبيلة، التي حافظ هو ومن سانده عليها. والغرض من كل هذا هو تصوير الواقع المصري في مرحلة الستينيات، وما تفاعل فيه من قيم وصراعات. وهذا يجعلنا نعتبر رواية "اللص والكلاب" من الروايات الناجحة التي راهن عليها نجيب محفوظ لتعرية الواقع المصري والعربي، وتطوير تجربته الروائية في آن واحد.

يقول سعيد مهران مخاطبا رؤوف علوان في حوار ذاتي :

«ما أعبث الحياة إن قتلت غدا جزاء قتل رجل لم أعرفه، فلكي يكون للحياة معنى وللموت معنى يجب أن أقتلك. لتكن آخر غضبة أطلقها على شر هذا العالم. كل راقد في القرافة تحت النافذة يؤيدني. ولأترك تفسير اللغز للشيخ علي الجنيدي».

• اللص والكلاب. مكتبة مصر - القاهرة. ص : 99.

اكتب، في ضوء قراءتك لهذا المقطـــع الروائي، موضوعا إنشائيا متكاملا، تضمنه ما يلي :

- خصائص الرؤية العبثية للبطل (سعيد مهران) ومظاهرها المتعددة.
- علاقة هذه الرؤية بمختلف المواقف والقيم الفكرية والأخلاقية في رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ.

التحليل

يؤطر كثير من أحداث رواية "اللص والكلاب" لنجيب محفوظ نسق فكري وفلسفي خاص ينم عن رؤية عبثية للوجود، حيث تتصادم (أو تتعايش) عدد من الوقائع والشخصيات الروائية كاشفة بذلك عن خليط من القيم والمواقف المتضاربة أو المتفاوتة بين الانحطاط والسمو الفكري والأخلاقي.

– فما هي، إذن، أبرزالمظاهر والمحددات الفكرية والأخلاقية لهذه الرؤية العبثية ؟ وكيف تنتظم وفقها وقائع الرواية ومواقف أبرز شخصياتها المتصارعة (أو المتعايشة) ؟

لقد بدت الرؤية العبثية للبطل (سعيد مهران)، في الرواية، أكثر اكتمالا ووضوحا إثر خروجه من السجن، واقتناعه بأهمية وضرورة الانتقام ممن سماهم "الخونة" لرد الاعتبار لنفسه، حيث قضى غدرا أربع سنوات من زهرة عمره وراء القضبان، ولتحقيق ما يتصوره قصاصا أو عدالة غائبة (أو مفتقدة) في محيطه الاجتماعي ككل. يقول: «...استعن بكل ما أوتيت من دهاء، ولتكن ضربتك قوية كصبرك الطويل وراء الجدران» (الرواية – ص : 8). ويقول مرة أخرى : «ولكنه – هو – لن يثني عن عزمه (...) ذلك أن الخيانة بشعة جدا يا أستاذ رؤوف. وتطلع إلى نوافذ البيت ويده قابضة على مسدسه في جيبه. الخيانة بشعة يا عليش. ولكي تصفو الحياة للأحياء يجب اقتلاع الخبائث الإجرامية من جذورها». (الرواية – ص : 60). لقد ضاع ماله الذي حصله من احتراف اللصوصية وسرقة دور الأغنياء وقصورهم. أما زوجته ؛ أو بالأحرى طليقته (نبوية) فقد قررت الزواج من معاونه السابق (عليش سدره)، وكذلك ابنته الصغيرة (سناء) فقد جفلت منه لما سعى إلى زيارتها وأعرضت عن لقائه... هكذا صارت أموره: لا مال، ولا عمل، ولا مستقبل... فلا بيت يأويه، ولا أسرة تحتضن ضياعه ووحدته. ولذلك كله تغيم الرؤية في عين السجين السابق، وتتزاحم أمام ناظريه الصور والمتناقضات التي تؤججها الذكريات المريرة... يقول : «...أشهد أني أكرهك. ونوافذ البيوت المغرية حتى وهي خالية. والجدران المتجهمة المقشفة. وهذه العطفة الغريبة عطفة

الصيرفي، الذكرى المظلمة، حيث سرق السارق. وفي غمضة عين انطوى، الويل للخونة. (...) تلك الأيام الرائعة التي لا يدري أحد مدى صدقها، فانطبعت آثار العيد والحب والأبوة والجريمة فوق أديم واحد» (الرواية – ص : 8).

لذلك غدت الحياة من منظوره مثالا للاجدوى وغياب أي معنى أو علة للوجود فسقطت وتردت إلى هاوية العبث، وصارت الأحاسيس النبيلة والقيم الإنسانية والأخلاقية ؛ كالحب، والعدالة، والإيمان، والحرية... مجرد كلمات جوفاء لا تجد من جانبه غير السخرية والازدراء كما تعلن عن ذلك، قبل استسلامه، تعليقاته وردوده على قوات البوليس التي حاصرته في نهاية الرواية :

« – سلم، وأعدك بأنك ستعامل بإنسانية...

كإنسانية رؤوف ونبوية وعليش والكلاب ! (...)

– حسن، ماذا تنوي ؟ اختر بين الموت والوقوف أمام العدالة.

فصرخ بازدراء :

– العدالة !» (الرواية – ص : 139 - 140 بتصرف).

وحتى الذين تعاطفوا مع قضيته من الفقراء والضعفاء وعموم الناس لم يسلموا من سخرية هذه التعليقات حينما بدت له محدودية إدراكهم وقصور فهمهم لما يتخبط فيه من عذاب ومعاناة، وعجزهم عن مساعدته : «يتحدث عنك ناس كأنك عنترة ولكنهم لا يدرون عذابنا.» (الرواية – ص : 100). ويقول مرة ثانية : «لن يكون الحكم أقسى من جفول سناء. قتلتك قبل المشنقة وعطف الملايين عليك عطف صامت عاجز كأماني الموتى. ألا يغفرون للمسدس خطأه وهو ربهم الأعلى.» (الرواية – ص : 150). ويقول متسائلا مرة أخرى : «الجرائد لسانها أطول من حبل المشنقة، وماذا ينفعك حب الناس إذا أبغضك البوليس ؟.» (الرواية – ص : 92)، ولذلك صب البطل جام نقمته وكرهه على الجميع : الأغنياء، القضاة، البوليس، الكلاب...إلخ ؛ فالعدالة أو القضاء مثلا في نظره قد بات في صف الخونة يخدم مصالحهم ويدافع عنها، بل والأغرب من ذلك أن ضحاياه من الضعفاء والأبرياء هم وحدهم من يحق لهم الإدلاء بشهاداتهم (لصالحه طبعا !)، حيث يقول : «...ولكن كيف تطمئن على قضاتك وبينك وبينهم خصومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام ؟! إنهم أقرب للوغد [رؤوف علوان] ويفصل بينك وبينهم قرن من الزمان. وأنت تطالب بشهادة الضحية. وتؤكد أن الخيانة باتت مؤامرة صامتة...» (الرواية – ص : 120)، وكذلك الشأن بالنسبة للصحافة التي جندت – حسب تصوره – كل أقلامها ومنابرها وأبواقها، بإيعاز من صديقه السابق الصحفي (رؤوف علوان)، لتشن عليه حملاتها وتكيل له الاتهام تلو الاتهام...يقول : «...واتهمته الصحف بالجنون. جنون العظمة والدم. لقد أفقدته خيانة زوجته عقله فهو يطلق النار بلا وعي. ولم يصب رؤوف علوان ولكن البواب المسكين سقط. بريء ضعيف آخر.

وصاح سعيد وهو يقرأ الخبر :

– اللعنة !». (الرواية – ص : 118).

لذلك يطالبه صديقه (المعلم طرزان) بالاختفاء إلى حين : «...فتساءل سعيد في حنق :

– ألا تجد الجرائد موضوعا غير سعيد مهران ؟» (الرواية – ص : 97).

لذلك يصل بطل الرواية (سعيد مهران)، في مسعاه، إلى الباب المسدود لما يدرك أن الحياة والموت هما معا على السواء في خلعة حفنة من الأغنياء والخونة والانتهازيين ؛ فرصاصاته الطائشة لا تصيب إلا الفقراء والتعساء والأبرياء (شعبان حسين الساكن الجديد في بيت عليش سدره، بواب رؤوف علوان)، وهو ما يفقد عقله ما تبقى له من "صواب" (إن كان ثمة صواب !) ...ولا يجعله عرضة للوم ومؤاخذات بعض المتعاطفين مع قضيته فقط...حيث تقول له نور : «...سائق التاكسي دافع عنك بحرارة، ولكنه قال إنك قتلت رجلا ضعيفا بريئا.» (الرواية – ص : 116)، بل ومادة لتسلية البعض الآخر وتزجية لأوقات فراغه أيضا...حيث تتابع (نور) قولها له مرة أخرى : «في العوامة التي سهرت فيها قال أحدهم عنك إنك منبه مسل في الملل الراكد» (الرواية – ص : 117)، وينضاف إلى هذه المفارقات الساخرة أنه استبدل بعد طول تخبط ومعاناة سجنا بآخر ؛ ذلك أن الإفراج عنه من سجن الحكومة لم يعن إطلاقا معانقته للحرية وتمتيعه بسراح لا مشروط إذ أن تورطه مجددا في الجريمة ومسارعته إلى إطلاق الرصاص على ضحاياه قد جعل منه إنسانا في حكم الحي الميت أو الميت الحي...بحيث بات رهين محبسه في حجرة (نور) لا يفارقها إلا لساعات ليلية معدودة، على سبيل الاحتراس واليقظة، خشية السقوط من جديد في قبضة البوليس...لقد سألته نور :

« – كيف قضيت وقتك ؟

فأجاب وهو يغمس ريشة في الطحينة :

– بين الظلمة والقبور. أليس لك أموات هنا ؟ » (الرواية – ص : 86).

ومن ثمة فهو يعاني عذاب الوحدة على نحو شديد : «...ثم تساءل بصوت مسموع :

– إلام أطيق أن أبقى في الظلام حتى تعود نور قبيل الفجر ؟

واستولت عليه بغتة رغبة لا تقاوم في أن يغادر البيت للقيام بجولة في الليل. وانهارت مقاومته كما ينهار بناء آيل للسقوط في ثوانته (الرواية – ص : 91)، وخاصة لما تضطر صاحبة البيت تحت وطأة ظروف العمل إلى الغياب عن بيتها الوقت طويل... يتساءل سعيد مهران : «...ترى أين باتت المرأة ؟ وماذا منعها عن العودة ؟ وإلام يقضى عليه بهذا السجن المنفرد ؟ وقرصه الجوع رغم قلقه وأفكاره فذهب إلى المطبخ فوجد في الصحاف كسرا من الخبز وفتات لحم عالقة بالعظام وبعضا من البقدونس فأتى عليها في نهم شديد وتمصص العظام ككلب» (الرواية – ص : 124). وفي ضوء مطاردة قوات الشرطة اللصيقة به وحصار كلابها الخانق لم يجد بدا من الاستسلام بعد أن انكشف أمره وباتت نهايته نهاية عبثية عند قبور القرافة، بالقرب من بيت نور السابق الذي حل به ساكن جديد، لذلك ما انفك يطلق الرصاص من مسدسه على غير هدى ولا هدف قبل أن يستسلم بلا مبالاة ...يقول السارد : «...فانصب الرصاص كالمطر، وفي جنون صرخ :

– يا كلاب !

وواصل إطلاق النار في في جميع الجهات. (...) ولم يعرف لنفسه وضعا ولا موضوعا ولا غاية وجاهد بكل قوة

ليسيطر على شيء ما، ليبذل مقاومة أخيرة. ليظفر عبثا بذكرى مستعصية. وأخيرا لم يجد بدا من الاستسلام، فاستسلم بلا مبالاة...بلا مبالاة...» (الرواية – ص : 140 - 143 بتصرف).

باختصار شديد، يمكن القول إن الرؤية العبثية للبطل (سعيد مهران) في الرواية ترتكز على مجموعة من المفارقات والتناقضات الفكرية والأخلاقية التي تتوزع ذاته ؛ كالعدالة والظلم، والحقيقة والزيف، والقوة والعجز، والصواب والخطإ...إلخ...بحيث تتجاوز هذه الرؤية ذات البطل، إلى ما هو موضوعي لتشمل مختلف مظاهر الحياة في محيطه، بل والوجود ككل !.